

نظرة تاريخية في حدوث

المذاهب الفقهية في الحجت

الحنيفي - المالكي - الشافعى - الحنفى
وانتشارها عند جمُهور المسلمين

تأليف

العلامة أحمد تيمور باشا

تقديم

الشيخ محمد أبو زهرة

دار الفاورى

المذهب الشافعي

في مصر :

يُنسب هذا المذهب إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي القرشي رضي الله عنه - المولود بغزة سنة ١٥٠ هـ والمتوفى بمصر سنة ٢٠٤ هـ .

وكان آية في الفهم والحفظ ، واجتمع له من الفضائل ما لم يجتمع لغيره ، ومذهبه ثالث الأربعة في القدم ، ويقال لأصحابه أهل الحديث كالمالكية^(١) بل كان أهل خراسان إذا أطلقوا «أصحاب الحديث» لا يعنون إلا الشافعية^(٢) وهو من أخذ عن الإمام مالك ، ثم استقل بذهب خاص .

قال ابن خلدون : رحل إلى العراق بعد مالك ، ولقي أصحاب الإمام أبي حنيفة وأخذ عنهم ، ومزج طريقة أهل الحجاز بطريقة أهل

(١) عن «ابن خلدون» و«طبقات السبكي» .

(٢) عن «طبقات السبكي» .

العراق ، واحتضن مذهب ، وخالف مالكا - رحمه الله - في كثير من مذهبـه .

ويذكر أصحاب الطبقات أن ظهور المذهب الشافعي كان أولاً بمصر ، وكثير أصحابه بها ، ثم ظهر بالعراق ، وغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان ، وتوران ، والشام ، واليمن ، ودخل ما وراء النهر وبلاط فارس والمحجاز ، وبعض بلاد الهند ودخل شيء منه في أفريقيا والأندلس بعد سنة ٣٠٠ هـ^(١) .

وكان الغالب على أهل مصر الحنفي والمالكي كما تقدم ، فلما قدم إليها الإمام الشافعي انتشر بها مذهبـه وكثير^(٢) .

قال ابن خلدون : وأما الشافعي فمقليدوه بمصر أكثر مما سواها وكان مذهبـه قد انتشر بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وقاسـم الشافعية الحنفـية في الفتوى والتدريس في جميع الأنصار ، وعظمـت مجالـس المنازـرات بينـهم ، وشـحنت كـتب الـخلافـات بـأـنواع اـسـتـدـلـالـاتـهم ، ثم درـسـ ذلك كلـه بـدرـوسـ المـشـرقـ وأـقطـارـه .

وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي لما نزل على بني عبد الحكم بمصر ، أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم ، وأشهـبـ وابـنـ القـاسـمـ وابـنـ

(١) عن «الديباج» و«الفوائد البهية» .

(٢) قال عبد القادر الطوخي في كتابه «قضـاةـ مصرـ» : إن عيسـىـ بنـ المنـكـدرـ قـاضـيـ مصرـ قـامـ فيـ وجـهـ الإمامـ الشـافـعـيـ فقالـ : دـخـلتـ هـذـهـ الـبـلـدـ وـأـمـرـهـ وـاحـدـ ، وـرـأـيـاـ وـاحـدـ ، فـفـرـقـتـ بـيـنـهـمـ ، يـشـيرـ إلىـ مـخـالـفةـ مـتـبـعـيـهـ لـاصـحـابـ مـالـكـ . فـإـنـ أـهـلـ مـصـرـ قـبـلـ وـجـودـ الشـافـعـيـ كـانـواـ لـاـ يـعـرـفـونـ إـلـاـ رـأـيـ مـالـكـ هـاـ ، وـفـيـ نـظـرـ . لـاـنـ الحـنـفـيـ كـانـ مـعـرـوفـاـ أـيـضاـ عـنـهـمـ .

الماز ، وغيرهم ، ثم الحارث بن مسكين وبنوه ، ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر لظهور الرافضة ، وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشى من سواهم ، إلى أن ذهبت دولة العبيدين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع إليها فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام فعاد إلى أحسن ما كان ، ونفق سوقه .

واشتهر منهم محي الدين النووي من الخلبة التي ربيت في ظل الدولة الأيوبية بالشام ، وعز الدين بن عبد السلام أيضا ، ثم ابن الرفعة بمصر ، وتقي الدين بن دقيق العيد ، ثم تقي الدين السبكي بعدهما . إلى أن انتهى ذلك إلى شيخ الإسلام بمصر لهذا العهد . وهو سراج الدين البليقيني . فهو اليوم أكبر الشافعية بمصر ، وكبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر . انتهى .

ولما أخذت الدولة الأيوبية في إنعاش مذاهب السنة بمصر ، ببناء المدارس لفقهاها ، وغير ذلك من الوسائل جعلت للشافعى الحظ الأكبر من عنايتها فخصّت به القضاء لكونه مذهب الدولة .

وكان بنو أيوب كلهم شافعية ، إلا المعظم عيسى بن العادل أبي بكر سلطان الشام ، فإنه كان حنفيا ، ولم يكن فيهم حنفي سواه ، وتبعه أولاده^(١) . وكان مغاليا^(٢) في التعصب لمذهبة ويعتبره الحنفية من

(١) عن ابن خلkan .

(٢) في الأصل : مغاليا ، والصواب ما أثبتناه اهـ الناشر .

فقهائهم . ألف شرحاً على «الجامع الكبير» في عدة مجلدات ، وله «السهم المصيب في الرد على الخطيب البغدادي» فيها نسبه للإمام أبي حنيفة في تاريخ بغداد^(١) .

ثم لما خلفتها دولة الترك البحريّة ، وكان سلاطينها شافعية أيضاً^(٢) استمر العمل في القضاء على ذلك ، حتى أحدث الظاهر بيبرس نظام القضاة الأربعة ، فكان لكل قاضٍ التحدث فيما يقتضيه مذهبـه بالقاهرة والفسطاط ، ونـصبـ النـوابـ وإجـلـاسـ الشـهـودـ ، وـمـيـزـ القـاضـيـ الشـافـعـيـ باستقلالـهـ بـتـولـيـةـ النـوابـ فيـ سـائـرـ بـلـادـ القـطـرـ ، لاـ يـشـارـكـهـ فـيـهاـ غـيرـهـ ، كـمـاـ أـفـرـدـ بـالـنـظـرـ فـيـ مـالـ الأـيـتـامـ وـالـأـوـقـافـ^(٣) وـكـانـتـ لـهـ مـرـتـبـةـ الـأـوـلـىـ بـيـنـهـ ، ثـمـ يـلـيـهـ المـالـكـيـ ، وـالـخـنـفـيـ ، وـالـجـنـبـلـيـ^(٤) .

ثم استمر الحال على ذلك في الدولة الجركسية حتى استولى العثمانيون على مملكتـهم فأبطلـوا نظامـ القـضاـةـ الـأـرـبـاعـةـ ، وـحـصـرـواـ القـضاـةـ فيـ الـخـنـفـيـ ، لأنـهـ مـذـهـبـهـ . وـلـمـ يـزـلـ مـذـهـبـ الـدـوـلـةـ إـلـىـ الـيـوـمـ . إـلـاـ أـنـ ذلكـ لمـ يـؤـثـرـ فـيـ اـنـتـشـارـ الـمـذـهـبـيـ الشـافـعـيـ وـالـمـالـكـيـ بـيـنـ الـأـهـلـيـنـ السـابـقـ

(١) عن ابن خالكان .

(٢) كان سيف الدولة قطع المتولى قبل بيبرس حفياً ولكن لم يؤثر ذلك في مذهب الدولة لقصر مدته . وزعم السيوطي في المحاضرة أنه لم يعرف فيهم غير شافعي سواه .

(٣) ، (٤) : عن «صبح الأعشى» . وذكر ابن بطوطة أن ترتيبـهم بـعـصرـ مـدةـ الـمـلـكـ النـاصـرـ كانـ بتـقـديـمـ الـخـنـفـيـ عـلـىـ الـمـالـكـيـ ، فـلـمـ ولـىـ القـضاـةـ بـرهـانـ الدـينـ بنـ عبدـ الـخـالـقـ الـخـنـفـيـ الـأـمـرـ أـشـارـ أـولـاـ الـأـمـرـ عـلـىـ الـمـلـكـ النـاصـرـ بـجـلوـسـ الـمـالـكـيـ فـوقـهـ كـمـاـ جـرـتـ بـذـلـكـ الـعـادـةـ الـقـدـيـةـ ، فـعـملـ باـشـارـاتـهـ وـاستـقـرـ الـأـمـرـ عـلـىـ ذـلـكـ . فـيـ الـأـصـلـ تـكـنـهـاـ ، وـالـصـوـابـ ماـ أـثـبـتـهـ . اـهـ النـاـشـرـ .

تمكناها^(١) وانتشارها بينهم . فبقيا غالبين على الريف والصعيد ، والشافعیُّ أغلب على الريف المعبُّ عنه بالوجه البحري .

وكانت شياخة الأزهر - وهي رئاسة العلماء الكبرى - محصورة في علمائه من سنة ١١٣٧هـ^(٢) ألى أن تولاها من الخفية الشيخ محمد المهدى العباسى سنة ١٢٨٧هـ ، مضافة إلى الإفتاء ، فلم تنحصر بعد ذلك في مذهب من المذاهب ، ولكن لم يتولها حنبلي لقلة الخانبلة بمصر .

في الشام والعراق :

وكان الغالب على أهل الشام مذهب الأوزاعيُّ ، حتى ولّ قضاء دمشق بعد قضاء مصر أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقى الشافعى ، فأدخل إليها مذهب الشافعى وحكم به ، وتبعه من بعده من القضاة . وهو أول من أدخله الشام ، وكان يَهِبُّ لمن يحفظ «مختصر المزنى» مائة دينار ، وتوفي سنة إحدى أو اثنتين أو ثلثاً وثلاثين^(٣) .

(١) في الأصل تمكناها ، والصواب ما أثبتناه . اهـ الناشر .

(٢) أول ما استطعنا معرفته من تولى شياخة الأزهر الشيخ محمد الخروشى المتوفى سنة ١١٠١هـ وكان مالكيا ، وتولاها بعده الشيخ ابراهيم بن محمد البرقاوى الشافعى وتوفي سنة ١١٠٦هـ انحصرت بعده في المالكية إلى سنة ١١٣٧هـ فانتقلت إلى الشافعية .

(٣) عن «رفع الإصر» و«الإعلان بالتوبيخ» و«الثغر البسام في قضاة الشام» لابي طولون .

وذكر المقدسي في «أحسن التقاسيم» : أن الفقهاء بأقليم الشام في زمانه - أي في القرن الرابع - كانوا شافعية^(١) ، قال : «ولا نرى به مالكيّا ولا داوديّا» .

وفي «طبقات السبكي» و«الإعلان بالتبين للسخاوي» أن المذهب انتشر فيما وراء النهر بـ محمد بن إسماعيل القفال الكبير الشاشي^(٢) ، وتوفي سنة ٣٦٥هـ . وذكر المقدسي أنه كان الغالب على كثير من البلدان في إقليم المشرق ، ككورة الشاش^(٣) وإبلاق وطوس ونسا وأبيورد وغيرها .

وفي هراة وسجستان وسرخس كانت تقع فيها عصبيات بين الشافعية والحنفية ، تُراق فيها الدماء ويدخل بينهم السلطان .

وذكر عن إقليم الديلم أن أهل قومي وأكثر أهل جرجان ، وبعض طبرستان ، كانوا حنفية ، والباقيون حنابلة وشافعية ، وكان لا يرى بيار صاحب حديث إلا شافعياً .

وذكر عن إقليم «القور» الذي هو من بلاد الموصل وآمد . . . الخ انتشار الحنفي والشافعي فيه قال : وفيه حنابلة . وذكر أن الشافعي كان الغالب على أقليم كرمان .

(١) في الأصل : وكانوا شافعية ، وهو خطأ والصواب ما ثبتناه . اهـ الناشر .

(٢) في الأصل : الشاشي وهو خطأ ، والصواب ما ثبتناه اهـ الناشر .

(٣) في الأصل : الشاش وهو خطأ في الأصل والصواب ما ثبتناه . اهـ الناشر .

وفي «الإعلان بالتوبیخ» أن الحافظ عبدالان بن محمد بن عيسى المروزی هو الذي أظهر مذهب الشافعی بمرو وخراسان ، بعد أحمد بن سیار . وكان السبب في ذلك أن ابن سیار حمل كتب الشافعی إلى مرو ، وأعجب بها الناس ، فنظر عبدالان في بعضها وأراد أن ينسخها فلم يمكنه ابن سیار ، فباع ضياعة وخرج إلى مصر ، فأدركه الربع وغيره من أصحاب الشافعی ، فنسخ كتب الشافعی ورجع إلى مرو ، وابن سیار حی ؛ ومات عبدالان سنة ٢٩٣ هـ .

وذكر أيضاً أن أبا عوانة يعقوب بن إسحاق النيسابوري الأسفراينی ، صاحب الصحيح المستخرج على مسلم ، أول من دخل مذهب الشافعی وتصانيفه إلى إسپراين . وهو من أخذ عن الربع والمزنی ، ومات سنة ٣١٦ هـ . إلى أن قال :

وأبو إسماعيل محمد بن إسماعيل بن يوسف السلمي الترمذی هو الذي حمل كتب الشافعی من مصر فانتسخها إسحاق بن رهويه وصنف عليها (الجامع الكبير) لنفسه . وهو من روی عن البؤيطي ، ومات سنة ٢٨٠ هـ .

وعن ابن سریج انتشر مذهب الشافعی في أكثر الأفاق .

وفي «معجم البلدان» لياقوت : أن أهل الرّی كانوا ثلاث طوائف : شافعية وهم الأقل ، وحنفية وهم الأكثر ، وشيعة وهم السواد الأعظم ، فوقعت العصبية بين السنة والشيعة ، فتضافر عليهم الحنفية

والشافعية ، وتطاولت بينهم الحروب حتى لم يتركوا من الشيعة من يعرف .

ثم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية فكان الظفر للشافعية ، مع قلتهم . فخررت محال الشيعة والحنفية ، وبقيت محلة الشافعية ، وهي أصغر محال الري ، ولم يبق من الشيعة والحنفية إلا من يخفي مذهبه .

وذكر في كلامه على «سادة» التي بين الري وهمدان : أنه أهلها كانوا سنية شافعية ، وكان بقرها مدينة يقال لها «آوة» أهلها شيعة إمامية . فكانت تقع بينهم العصبية .

وفي الكامل لابن الأثير في حوادث سنة ٥٩٥هـ . ما نصه : وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية^(١) . وصار شافعي المذهب .

(١) نسبة إلى محمد بن كرام السجستاني المتوفى سنة ١٥٠هـ وقد اختلفوا في ضبط كرام فقيل بتخفيف الراء وكسر الكاف أو فتحها . وقيل بفتح الكاف وتشديد الراء . وكان محمد صاحب مذهب في العقائد معروف إلا أن المقرizi في خططه ذكر أنه انفرد في الفقه أيضاً بأشياء : منها أن المسافر يكفيه من صلاته تكبيرتان ، وأجاز الصلاة في ثوب مستترق في النجاسة ، وزعم أن العبادات تصح بغير نية ، وتكتفي الإسلام إلى آخر ما ذكر مما يدل على أنه صاحب آراء في الفروع ومنه يعلم معنى انتقاد غياث الدين من هذا المذهب إلى المذهب الشافعي .

وكان سبب ذلك أنه كان عنده إنسان يعرف بالغجر مبارك شاه ، يقول الشعر بالفارسية ، وكان متوفناً في كثير من العلوم ، فأوصل إلى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروزي الفقيه الشافعى ، فأوضح له مذهب الشافعى وبين له فساد مذهب الكرامىة فصار شافعياً وبنى المدارس للشافعى ، وبنى بعذنة مسجداً لهم أيضاً ، وأكثر مراعاتهم فسوى الكرامىة في أذى وجيه الدين ، فلم يقدّرهم الله تعالى على ذلك .

وقيل إن غياث الدين وأخاه شهاب الدين - لما ملكا في خراسان قيل لها : إن الناس في جميع البلدان يزورون عن^(١) الكرامىة ويحتقرنهم ، والرأي أن تفارقوا مذهبهم فصارا شافعيين ، وقيل : إن شهاب الدين كان حنفياً والله أعلم .

وكان الحنفى غالباً على بغداد كما قدمنا ، ثم زاحمه فيها الشافعى وكانت له كثرة ، ومع أن الحنفى كان مذهب الدولة لم يمنع ذلك من تقليد بعض الخلفاء للشافعى ، كما فعل المتوكل . وهو أول من فعل ذلك منهم^(٢) .

وكان الحسن بن محمد الزعفراني ، من رواة القديم عن الشافعى ، أحد من نشره فيها ، وتوفي سنة ٢٦٠ هـ .

(١) في الأصل يزورون على ، والصواب ما ثبتناه . اهـ الناشر .

(٢) عن محاضرة الأوائل .

قال السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» :

«حجَّ الرَّبِيعُ بْنُ سَلِيمَانَ سَنَةً أَرْبَعينَ وَمَائِيْنَ ، فَالْتَقَىَ مَعَ أَبِي الحَسْنِ بْنَ مُحَمَّدٍ الزُّعْفَرَانِيِّ بِكَّةً . فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ . فَقَالَ الرَّبِيعُ : يَا أَبَا عَلِيٍّ ، أَنْتَ بِالْمَشْرُقِ ، وَأَنَا بِالْمَغْرِبِ نَبْثُ هَذَا الْعِلْمَ ، يَعْنِي عِلْمَ الشَّافِعِيِّ . اَنْتَهَىَ .

يريد بالغرب مصر ، لأنها كذلك بالنسبة لبغداد .

«وَفِي طَبَقَاتِ السَّبِيْكِيِّ» ، أَنَّ بْنَيَ أَبِي عَتَّامَةَ هُمُ الَّذِينَ نَشَرُوا اللَّهَ بِهِمْ مَذَهَبَ الشَّافِعِيِّ فِي تَهَامَةَ .

هذا ما انتهى إلينا علمه عن انتشار هذا المذهب بمصر وسائر بلاد المشرق .

وأما المغرب فلم يكن حظه منه كبيراً لغلبة المالكي على بلاده ، حتى زعم المقدسي في «أحسن التقاسيم» أنهم كانوا بسائر المغرب على عهده إلى حدود مصر لا يعرفونه ، وأنه ذاكر بعضهم مرّة في مسألة ، فذكر قول الشافعي ، فقالوا من الشافعي؟ إنما كان أبو حنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب .

قال : ورأيت أصحاب مالك يبغضون الشافعي ويقولون أخذ العلم عن مالك ثم خالفه .

وقال عن القیروان : ليس في أهلها غير حنفي ومالك مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية .

وقال عن الأندلس : ليس بها إلا مذهب مالك ، فإن ظهروا على
حنفيٍ أو شافعيٍ نفوه .

وفي الكامل لابن الأثير : أن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ،
صاحب المغرب والأندلس ، بعد أن تظاهر بذهب الظاهيرية ، مال إلى
الشافعية في آخر أيامه واستقضاهم على بعض البلاد .

ويتبع غالب الشافعية في الأصول مذهب أبي الحسن الأشعري
وقال التاج السبكي في «الطبقات» :

إن غالبهم أشعاره لا يُستثنى إلا منْ لحقَ منهم بتجسيم أو اعتزال
منْ لا يَعْبُدَ اللهَ به .